الاحتلال العثماني واليقظة القومية العربية

الدكتور خليل ابراهيم صالح المشهداني
فرع الثقافة الوطنية و القومية في كلية ألآداب / جامعة بغداد

المقدمة

تعرضت الامة العربية في اواخر عهد الدولة العربية العباسية الى حالة من الضعف والانحلال والتدهور ، بسبب تدخل العناصر الاجنبية وسيطرتها على مركز الخلافة والاستحواذ على ثرواتها ، فضلا على اضعاف الروح المعنوية لدى الانسان العربي في مواجهة التحديات التي تعرضت لها الامة العربية ، الامر الذي مهد الطريق امام الغزو المغولي الذي اجتاح مشرق الوطن العربي واسقط الدولة العربية العباسية عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، فعمّ الخراب والدمار معظم المعالم الحضارية من مؤسسات علمية وثقافية ، وتدهورت في الوقت نفسه الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية .

تصدى ابناء الامة العربية لهذه الموجة الغازية ، فشحذوا الهمم ووحدوا الصفوف لمواجهة هذا الخطر ، فكان ان تحقق الانتصار الكبير على الاعداء في موقعة عين جالوت في فلسطين عام ١٢٦٠م ، تلك الموقعة التي وضعت حدا للزحف المغولي باتجاه باقي اجزاء الوطن العربي [١] .

غير ان هذا الانتصار لم يتعزز بظهور قيادة عربية تعيد ترتيب اوضاع الدولة العربية بما ينسجم ودورها الحضاري فتسللت العناصر غير العربية من

---

(١) عبد الكريم رافت ، العرب والعثمانيون ١٥١٦ - ١٩١٦ ، دمشق ١٩٧٤ ، ص ٤ ، محمد العزب موسى ، وحدة تاريخ مصر ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٢٠٨ .

المماليك وغيرهم وسيطرت على المراكز القيادية في الحكم وشكلت قوى سياسية وعسكرية منفصلة عن المجتمع العربي اشاعت النتر والظلم والاستبعاد باجراءاتها القسرية في حكم البلاد [١].

الغزو العثماني والاوربي للوطن العربي

في مثل هذه الظروف والاوضاع التي كانت الامة العربية تعيشها ، تعرض الوطن العربي الى الغزو والاستعمار من جهتي الشرق والغرب ، وفي فترة تكاد تكون متزامنة ، بالرغم من اختلاف العوامل التي اتبعت في الاحتلال . فمن جهة الشرق اتخذ الاحتلال طابعا [دينيا] تحت ستار الاسلام والذي تمثل بالاحتلال العثماني ، في حين جاء الاستعمار الاوربي من جهة الغرب لكون الوطن العربي يمثل الجسر الارضي الذي يصل بين الشرق والغرب ، ولانه غني بخيراته وثرواته التي كان الغرب بأمس الحاجة اليها .

توجهت اطماع الدولة العثمانية نحو الوطن العربي في وقت لم يعد بمقدورها التوغل اكثر مما وصلت اليه داخل القارة الاوربية ، خاصة بعد ان نجح الاوربيون من تطوير اسلحتهم ، فضلا عن ان الجيوش العثمانية قد وصلت الى درجة الاشباع في عملياتها العسكرية في هذا الميدان ، الامر الذي دفعها الى البحث عن ميادين اخرى للسيطرة والتوسع [٢] . وان الذي شجع العثمانين في الاسراع بأتجاه الوطن العربي هو ظهور قوة جديدة منافسة لهم ، تقوم على نفس الفكرة التي قامت عليها الدولة العثمانية ، هي الدولة الصفوية [٣] . وفي الوقت نفسه قامت القوات البرتغالية بالسيطرة على بعض سواحل الوطن العربي واتخذتها محطات تجارية او قواعد عسكرية لتأمين تجارتها ، بعد ان ازداد نشاط البرتغاليين

---

(١) محمد عمارة ، فجر اليقظة القومية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ٣٥٤ - ٣٥٦ .

(٢) نزار عبد اللطيف الحديثي ، الامة العربية والتحدي ، بغداد ١٩٨٥ ، ص٤٢ - ٤٣ .

(٣) عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ٥٥ - ٥٧ .

التجاري اثر اكتشافهم لطريق رأس الرجاء الصالح الامر الذي دفع بالعثمانيين الى الوقوف بوجه الغزو الاوربي بأعتباره واجبا [دينيا] (١) .

فرضت الدولة العثمانية سيطرتها على معظم اقطار الوطن العربي خلال الفترة الممتدة بين عامي (١٥١٦ - ١٥٧٤ م) بأستثناء المغرب وعمان حيث ظلت خارج سيطرتها (٢) .

لم تواجه القوات العثمانية اثناء تقدمها اية مقاومة تستحق الذكر ، بسبب ما كان يعانيه الشعب العربي في ظل حكم المماليك من حالة بؤس وشقاء واضطهاد ، ولان الدولة العثمانية توجهت الى الوطن العربي بأسم الجهاد والحفاظ على ارض المسلمين (٣) .

جاء توجه العثمانيين نحو الوطن العربي في وقت كانت دولتهم فيها بأمس الحاجة الى الاصلاح والتجديد ، غير انها انغمست في صراع سياسي وعسكري مع الصفويين في الشرق والاوربيين في الغرب ، وكانت ساحة هذا الصراع ووقوده الارض العربية والشعب العربي (٤) .

عانت الامة العربية الكثير طيلة الاربعة قرون من الحكم العثماني الذي اتسم بالجمود والتخلف وعدم الرغبة في التطور والابداع ، فأنعكس ذلك على مجمل الاوضاع العامة لنشاط ابناء الامة العربية طيلة سنوات الاحتلال (٥)، الامر الذي دفع ابناء الامة العربية الى مقاومة هذا الاحتلال عبر العديد من الانتفاضات .

---

(١) احمد موسى البكري ، تاريخ الوطن العربي في العصور الحديثة ، ١٩٧٢ ، ص٢٣.

(٢) مصطفى الشهابي ، القومية العربية تاريخها وقوامها وحرابها ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٨ ، لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، ترجمة عفيفة البستاني ، موسكو ١٩٧١ ، ص ٨.

(٣) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٣ ، بيروت ١٩٦٥ ، ص٤٠-٤٢ .

(٤) علاء نورس ، العراق في العهد العثماني ١٧٠٠ - ١٨٠٠ ، بغداد ١٩٧٩ ، ص ٢٢ .

(٥) ارسكين تشايلدرز ، الحقيقة عن العالم العربي ، تعريب خيري حماد، بيروت١٩٦٠، ص٤٦.

كان هم حكام الولايات المحافظة على مصالحهم دون أي اعتبار يذكر لمصلحة رعايا الدولة العثمانية ، المهم هو امداد السلطات العليا بالاموال واذا اقتضى الامر بالرجال لتجنيدهم في خدمة جيوش الدولة ، ومتى ما وفى حاكم الولاية للباب العالي باداء هه المهمات تكون الانظار بعيدة عنه وعن الاسلوب الذي اتبعه ارضاء للسلطان العثماني ، وهذا التصرف لا يمكن تفسيره الا بأنه تجاهل لمصلحة البلاد واهمال لشؤونها [١] .

في ظل هذه الفوضى السياسية والادارية وماعاناه الشعب العربي من ظروف قاسية اندفعت الجماهير العربية الى مواجهة الظلم والاذلال بكل سلاح ، بالقوة ، وبالكلمة ، وبالانتفاضة ، وبالنوادر والحكم والامثال في بعض الاحيان [٢] .

ان الاوضاع السيئة التي كانت عليها الدولة العثمانية جعلت بعض المفكرين الاتراك ينتقدون حياة رجال الدولة الذين كانوا يقيمون في العاصمة ، حيث القصور الفخمة والمفروشة بانواع الاثاث والرياش بما لا يتناسب مع رواتبهم فأصبحت ظاهرة الرشوة وبيع المناصب بالاثمان الباهضة والاستيلاء على الاراضي واقطاعها من الامور الشائعة في الدولة العثمانية [٣] .

ومن جانب آخر كان لتغير طرق المواصلات البحرية بعد استكشاف رأس الرجاء الصالح الأثر الكبير في تردي الاوضاع الاقتصادية وضعف امكانات الدولة العثمانية من الناحية العسكرية ، مما عرضها الى سلسلة من الهزائم العسكرية امام القوى الاوربية ، فأضطرت الى عقد العديد من المعاهدات معها والتي بموجبها حصلت الدول الاوربية ورعاياها على الكثير من الامتيازات

---

(١) تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج ٢ ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٣٣٥ .

(٢) محمد عمارة ، المصدر السابق ، ص٣٦٧.

(٣) نقلا عن ، محمد اسعد اطلس ، تاريخ الامة العربية ، عنصر الانحدار ، بيروت ١٩٦٣ ، ص١٩٢.

اعطت الحق لبعض الدول الاوربية التدخل في شؤونها الداخلية في بعض الاحيان[١] .

ساهمت هذه التطورات فضلا عن عدم قدرة العثمانيين على فهم واستيعاب الدور التاريخي للشعب العربي وما يمتلكه من عمق حضاري في ابعاد الولايات العربية من ممارسة أي نشاط سياسي عن طريق اشاعة الجهل والتخلف بين اوساط المجتمع العربي ، وحرمان العرب من ممارسة أي دور قيادي في مؤسسات الدولة ، كل ذلك كان له الأثر الكبير في ظهور بعض الاسر والزعامات المحلية التي حاولت الاستئثار بالسلطة والانفصال عن الدولة العثملنية مثل الحركة الاستقلالية التي حمل لواءها الائمة الزيديون في اليمن ، والحركة الوهابية في نجد ، والحركة السنوسية في ليبيا ، والمهدية في السودان [٢] .

غير ان دراسة نقدية لطبيعة كل واحدة من هذه القوى او الحركات وظروف نشأتها ، تكشف انها لم تكن ذات اهداف سياسية واضحة وانما اقتصرت على نظرة

---

(١) عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص١٢٠، حازم زكي نسيبة ، القومية العربية فكرتها ، نشأتها ، تطورها ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٦٥ - ٦٧ .

(٢) من بين هذه القوى :

أ.	المماليك في بغداد	١٧٥٠ - ١٨٣١ م
ب.	الجليليون في الموصل	١٧٢٦ - ١٨٣٤ م
ج.	المماليك في مصر	١٧٥٧ - ١٧٩٨ م
د.	ال ظاهر العمر في فلسطين	١٧٣٧ - ١٧٩٩ م
هـ.	ال معين في لبنان وال العظم في سوريا	
و.	الاسرة القرامنلية في طرابلس	١٧١١ - ١٨٣٥ م
ز.	الاسرة الحسينية في تونس	

محمد عزه دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، بيروت ١٩٧١ ، ص٥٧ ، ابراهيم خليل احمد ، تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر ، الموصل ١٩٨٧ ، ص ٢١ - ٢٢ .

ضيقة تهدف الى تحقيق النفوذ المحلي للامير او القبيلة ، الامر الذي مكّن السلطة العثمانية من اضعافها عن طريق تحريض بعضها ضد البعض الاخر [١] .

ويمكن ان نشير هنا ان نسير هنا الى الدور الذي قام به محمدعلي بعد ان تولى حكم مصر عام ١٨٠٥م ، في اقامة حكم مستقل عن الدولة العثمانية بعد سلسلة من العمليات العسكرية احتل خلالها اجزاء واسعة من الجزيرة العربية والسودان وبلاد الشام ، على انها محاولة لتوحيد اقطار الوطن العربي ، الا ان هذه المحاولة لم تكن عربية من حيث القيادة والفكرة ، لان تطلعات محمدعلي السياسية هي التي قادته الى محاولة اضفاء السمة العربية عليها وبالرغم من كل ذلك لوقُدّر لهذه المحاولة النجاح لكان لها أثر في تغيير اوضاع المنطقة العربية سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ، غير ان المقاومة التي وإجهها من قبل الدولة العثمانية بدعم وتأييد من قبل القوة الاوربية " شلت هذه المحاولة [٢] .

ترك ظهور مثل هذه القوى والحركات اثرا على المرحلة اللاحقة من حياة الامة العربية ، لانها أحدثت هزة في كيان المجتمع العربي ولدت فيه روحا تدعو الى نهضة عربية قومية ، يضاف الى ذلك الاتصال العلمي والفكري مع القارة الاوربية الامر الذي اوجد الاساس للحركة الفكرية التي شهدها العديد من ارجاء الوطن العربي في اواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين [٣] . ولعل السمة الدينية التي كانت الدولة العثمانية قائمة على اساسها قد اخرت ظهور القومية العربية الى اواخر القرن التاسع عشر [٤] .

---

(١) عبدالكريم رافت ، المصدر السابق ، ص٨٨ .

(٢) ناجي علوش ، الحركة القومية العربية ، نشوزها ، تطورها ، اتجاهاتها، بيروت ، ص١١ - ١٥.

(٣) عبد الغني البشري ، أثر سياسة القوميات في الحركة القومية العربية ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٢٥ .

(٤) عبد الغني البشري ، المصدر السابق ص١٢١، محمد عماره ، العروبة في العصر الحديث، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٦ - ١٧ .

أما الدولة العربية الاوربية الاستعمارية فقد وجهت أنظارها نحو الوطن العربي بعد التطورات السريعة التي شهدتها القارة الاوربية أثر استكشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، واتساع حركة التجارة العالمية مستغلة في ذلك واقع الدولة العثمانية المتخلف، فضلا عن الطابع الديني الذي برز بصورة واضحة بعد انهيار الدولة العربية الاسلامية في الاندلس عام ١٤٩٢م ، عندما لاحق الاسبان والبرتغاليون العرب حتى سواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسي ، وبالرغم من ان هذه القوى قد نجحت في الوصول الى سواحل المغرب العربي والسيطرة على بعض سواحل المغرب والجزائر ، الا ان المقاومة العربية استمرت طيلة فترة حكم دولة المرابطين والموحدين والحفصيين والمريذيين والسعديين . والذي ساعد على نجاح هذه المقاومة ضد الغزو الاسباني والبرتغالي هو تردي اوضاع هذه القوى الاقتصادية وانشغالها بمعالجة المشكلات الداخلية ، فضلا عن ان العثمانيين ظهروا كقوة بحرية في البحر المتوسط ساهمت بالوقوف ضد الغزو الاوربي[١].

وبالرغم من ان السيطرة العثمانية على اقطار المغرب العربي كانت اسمية ، الا ان الشعب العربي كان يتطلع نحو الاستقلال ، فظهرت حكومات محلية تحت حكم الدايات والبايات في الجزائر وتونس وليبيا تمتعت بما يشبه الاستقلال الذاتي مرتبطة اسميا بالعاصمة العثمانية اسطنبول [٢] .

اشتدت المحاولات الاستعمارية الاوربية بعد التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية في اعقاب حركة الثورة الصناعية ، والتي كان

---

(١) عبد الكريم رافت ، المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٥ و ٩٤ - ٩٥ ، نور الدين حاطوم ، محاضرات عن حركة القومية العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٦ - ٢٧ ، خيرية عبد الصاحب وادي ، الفكر القومي العربي في المغرب العربي ، بغداد ١٩٨٢ ، ص٢١ - ٢٧

(٢) عبد الكريم رافت ، المصدر السابق ، ص ١٨٤ - ١٩١.

من ابرز نتائجها ظهور النزعة الاستعمارية تحت ستار البحث عن اسواق لتصريف منتجاتها الصناعية وللحصول على المواد الاولية ، وفي اطار توزيع الادوار الاستعمارية بين القوة الاوربية ، وجهت فرنسا اطماعها نحو اقطار المغرب العربي ، فقد تغلغل الاستعمار الفرنسي في الجزائر عام ١٨٣٠ م ، وفي تونس عام ١٨٨١م ، والمغرب عام ١٩١٢م ، مارس خلالها ابشع انواع البطش والارهاب والاستغلال ، كان اخطرها محاولة طمس الشخصية القومية العربية من خلال سياسة الفرنسة . غير ان رد الفعل العربي كان عنيفا تمثل في المقاومة العربية البطولية التي تزعمها العديد من قادة المغرب العربي [١]. ومن ابرزهم الامير عبد القادر الجزائري الذي قاد المقاومة العربية طيلة سبعة عشرة عاما . فكانت ثورته اول مقاومة عربية منظمة في التأريخ الحديث ، اتسمت بالروح الثورية ، واعتمدت على الامكانات الذاتية لابناء الامة العربية . وقد ساعد عبد القادر الجزائري على النجاح في قيادة المقاومة نشأته العربية ، واطلاعه على الثقافة العربية الاسلامية ، وتجربته الميدانية التي عاشها خلال تجواله في اقطار المشرق العربي وحضوره حلقات الدروس العلمية والدينية ، فضلا عن زيارته للعديد من الدول الاوربية . كل ذلك مكنه وبأقتدار عال اثارة المشاعر القومية العربية . فوحّد جهود العرب وامكاناتهم في مواجهة مخاطر الاستعمار الاوربي وللحفاظ على الشخصية العربية من مخاطر الغزو الاجنبي ، ومما يؤكد ذلك الرسائل التي بعث بها الى سلطان مراكش وباي تونس وخديوي مصر وشريف مكة ينبههم فيها الى مخاطر الاستعمار على مستقبل الامة العربية اذ لم يوحدوا جهودهم ، فكان لدعوته هذه أثر واضح في استمرار النضال ضد سياسة الاستعمار الفرنسي حتى بعد اعتقاله عام ١٨٤٧ ونفيه الى بلاد الشام [٢] .

---

(١) محمود صالح منسي ، حركة اليقظة العربية في الشرق الاسيوي ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤٨ - ٤٩ ، ابراهيم خليل احمد ، المصدر السابق ، ص ٥٠ - ٥٧ .

(٢) خيرية عبد الصاحب وادي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ - ٤٠ .

استمرت المقاومة في الجزائر وتلاحقت الانتفاضات عام ١٨٤٨م وعام ١٨٥٢م ولعل اكبر هذه الانتفاضات هي التي قادها محمد المغراني في عام ١٨٧١م التي عمت مناطق واسعة من الجزائر (١) .

وشهدت تونس هي الاخرى مقاومة نشطة اثر تعرضها للاحتلال الفرنسي ، فقد ظهر العديد من الزعماء الشعبيين الذين قادوا النضال العربي ، ابرزهم علي بن خليفة ، واحمد بن يوسف ، ومحمد بن عثمان السنوسي وغيرهم الذين كانت لهم مساهمتهم القومية في الحفاظ على عروبة تونس من خطر سياسة الفرنسة (٢) .

وواجه المغرب الاقصى هو الآخر هجمة استعمارية شرسة اسبانية وفرنسية، ووجهت بمقاومة شعبية وكانت اولى الانتفاضات هي الثورة التي اندلعت في مراكش عام ١٩١٢م ، وانتي سرعان ما وجدت لها صدى في موريتانيا مما يؤكد على وحدت الشعور القومي ضد الاحتلال الاجنبي . وقد استمرت حركة المقاومة العربية حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى (٣) .

ان ما يمكن ملاحظته من خلال السياسة التي اتبعتها فرنسا في محاولة القضاء على كل مقومات الشخصية الحضارية العربية ، ان الشعب العربي قد ازداد تمسكه بكل القيم العربية الاصيلة ، واهتم ببعث تراثه الحضاري من خلال حفاظه على اللغة العربية . فاستمر النضال من اجل الحرية والاستقلال رغم ان ما عاناه شعبنا في المغرب العربي يفوق ما عاناه الشعب العربي في ظل السيطرة العثمانية (٤) .

وكان طبيعيا ان تجد الحركة الوطنية والقومية في المغرب العربي لها ولنضالها صدى في مصر وعموم المشرق العربي لما تحمله من اهداف ومُثل

---

(١) عبد الكريم رافت ، المصدر السابق ، ص ٤٦٩ - ٤٧٢ .

(٢) عفيف البوني ، وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث ، باريس بلا ، ص٦٨-٧٧ .

(٣) محمد عمارة ، العروبة في العصر الحديث ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ .

(٤) عفيف البوني ، المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ ، شارل اندري جوليان ، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي ، تونس بلا ، ص ٤٢ - ٤٧ .

عليا ، لان كفاحها هو امتداد لحركة الثورة العربية ضد كل اشكال الاستعمار من المحيط الاطلسي وحتى الخليج العربي [١] .

فشهدت مصر مقاومة عربية ضد سياسة الاستعباد والاستغلال التي مارسها احفاد محمد علي ، وبلغت دورتها في ثورة احمد عرابي عام ١٨٨١م ، غير ان القوى الاستعمارية الاوربية ، واجهت هذه الثورة حرصا منها على ابقاء هذه المنطقة الحيوية تحت اشرافها وسيطرتها ، فتحركت بريطانيا لاحتلال مصر وانهاء هذه الحركة التحررية في عام ١٨٨٢م . الا ان حركة المقاومة اتسعت قاعدتها الشعبية عبر الانتفاضات التي تلاحقت ضد الوجود الاستعماري البريطاني حتى قيام الحرب العالمية الاولى [٢] .

وعبر عرب الخليج العربي عن حبهم للحرية والاستقلال فواجهوا وبكل بسالة القوى الاستعمارية الاوربية من برتغالية وهولندية وفرنسية وبريطانية ، فظهر العديد من القوى العربية في منطقة الخليج العربي مثل دولة اليعاربة والبو سعيد والقواسم التي كان لها دور مشرف في الكفاح ضد الغزو الاستعماري دفاعا عن الحرية والاستقلال [٣] .

لم تتوقف حركة النضال العربي رغم كل الاساليب التي اتبعت لاعاقة أو تأخير الوعي القومي العربي ، وهذا ما اتضح من خلال الظروف الذاتية والموضوعية التي مرت بها الجماهير العربية سواء التي كانت تحت الاحتلال العثماني أم التي ترزخ تحت نير الاستعمار الاوربي ، فقد نمت وتطورت حركة اليقظة الفكرية لكل تحد قومي لتكون اساسا في نقل نضال الجماهير العربية من الحالة العفوية في النضال الى مرحلة اكثر نضجا ووعيا وتطورا في استخدام امكانات وطاقات الامة العربية للتعبير عن اهدافها القومية في الحرية والاستقلال .

---

(١) محمد عمارة ، العروبة في العصر الحديث ، ص ٢٨٧ - ٣٠٢ .

(٢) عبد الكريم رافت ، المصدر السابق ، ص ٤٩٧ - ٥١٠ .

(٣) ابراهيم خليل احمد ، المصدر السابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .

اليقظة العربية ، عواملها ومراحل تطورها

رغم الظروف الصعبة التي تعرضت لها الامة العربية طيلة القرون التي مرت بها بعد انهيار الدولة العربية العباسية عام ١٢٥٨م وحتى تاريخنا المعاصر ، الا انها ظلت أُمة حية عبرت عن قدرتها على الصمود والتحدي مستلهمة ذلك من خلال صلتها بالماضي المزدهر الذي سيبقى علامة مضيئة للاجيال اللاحقة بالرغم من كل ظروف القهر الاستعباد ، وان ما أعترى الامة العربية من حالة تفكك نتيجة لتلك الظروف هي حالة مؤقتة ، لان الذات العربية قادرة على تجاوز المحن متحفزة للانطلاق حال توفر عوامل نهوضها . بل ان هذه التحديات التي واجهت الانسان العربي هي التي افصحت عن عبقرية الامة العربية وقدرتها على العطاء والتجديد والابتكار .

فقد حملت فترة الركود التي عاشتها الجماهير العربية بذور نهضة جديدة ظهر خلالها الكثير من المصلحين والمفكرين والسياسيين الذين كان لهم دور رائد في تهيئة القاعدة الفكرية والحضارية لانطلاقة حركة الثورة العربية في تاريخنا المعاصر .

تمثلت ردود الفعل الاولى لدى المصلحين العرب على مظاهر الضعف والانحلال والفساد التي اصابت المجتمع العربي ، بانها كانت دينية سلفية رافقها شيوع الكثير من البدع والضلالات ، ولحالة من الجمود والتقليد الاعمى ، التي ابعدت ابناء الامة العربية عن جوهر العقيدة الاسلامية وجعلتهم عرضة لحالة من الفرقة والتدهور الاجتماعي ، فظهرت الدعوات الى الصلاح الاجتماعي والسياسي لمعالجة الواقع العربي ومعاناته في ظل السياسة الاجنبية والدعوة الى الثورة على كل اشكال الظلم والفساد [١] .

---

(١) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩١٤ ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٣٧ - ٥٥ .

غير ان حالة الوعي القومي أخذت اتجاها آخر بعد ان تغلغل الاستعمار الاوربي في جسم الامة العربية وقد تمثل رد الفعل العربي بظهورتيارين : الاول، يدعو الى ضرورة الأخذ بمظاهر الحضارة الاوربية لأنبهاره بها ، وقد مثّل التيار رفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣م) ، في حين مثّل خير الدين التونسي (١٨٢٢ - ١٨٨٩م) التيار الثاني ، الذي دعا الى ضرورة الاستمرار بعملية بعث الحضارة العربية الاسلامية واحيائها لانها أقدر من غيرها على معالجة واقع الامة العربية والنهوض الى مصاف الامم الراقية ، وقال : [ان اوربا عندما بدأت نهضتها كانت اسوأ حالا منّا ، والامة العربية لها عقليتها واستعدادها وعمق حضارتها ما يمكنها من السير في هذا المجال ، اذا ادركت حريتها الكافية ، فالحرية والطموح غريزتان عند المسلمين تأصلتا منهم بتعاليم دينهم] [١] .

وكان من نتيجة الاتصال الذي حدث بين العرب والغرب ان اطلع العرب على الكثير من الافكار والمصطلحات التي كانت شائعة في اوربا كالحرية والديمقراطية والدستور والوطن والوطنية والامة والقومية [٢] . فقد اضافت حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨م مرحلة جديدة على طريق النهضة العربية الحديثة سواء كان ذلك بصورة مباشرة او غير مباشرة ، بالرغم من الاهداف الاستعمارية التي جاءت من اجلها هذه الحملة . ان المتتبع للاحداث التي رافقت سنوات الاحتلال الثلاث يمكن ان يستنتج الآثار التي تركتها في نفوس الشعب العربي المصري من مشاعر وطنية وقومية انعكست اثارها على مشرق الوطن العربي خلال فترة حكم محمد علي ، فقد نشطت في تلك الفترة حركة احياء التراث العربي ونشر المعرفة العلمية من خلال تأسيس المدارس وارسال البعثات العلمية الى اوربا [٣] .

---

(١) انور الجندي ، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، القاهرة ١٩٧١ ، ص٦٤ - ٧٦.

(٢) علي المحافظة ، المصدر السابق ، ص ٩٧ .

(٣) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس طه ، بيروت ١٩٧٨ ، ص١٢ - ٣٢ .

وساهمت البعثات التبشيرية التي اخذت تصل الى بلاد الشام منذ القرن السابع عشر في اليقضة الفردية ، فبالرغم من الآثار السلبية التي تركتها هذه البعثات في ايجاد نوع من الولاء للدول الاوربية على حساب المشاعر القومية العربية [١] ، الا ان نشاطها في انشاء المدارس ونشر الكتب التراثية وتأسيس الجمعيات الادبية والعلمية ، ادى الى تأسيس المطابع وانتشارها في الولايات العربية التي يسرت طبع الكتب المدرسية والدينية ، وهذا جعل العرب المسيحيين يفتخرون بثقافتهم العربية على الترك ، حتى ان التعليم صار باللغة العربية في جميع المدارس البروتستانتية والكاثوليكية [٢] . وطالب الروم الارثوذكس بتعريب كنائسهم بعد ان كان اليونانيون مسيطرون عليها حتى اواخر القرن التاسع عشر ، وقد تم لهم ذلك في سورية بعد كفاح مرير ، كان النصر فيه للفكرة العربية الكامنة في نفوسهم [٣] .

وقامت الصحافة العربية بدورها الرائد في ايقاظ المشاعر القومية وتقريب الاذهان والمواقف الفكرية والسياسية بين ابناء الامة العربية ، وخلق رأي عام عربي موحد ازاء كل اشكال الاستعمار يدعو الى الحرية والاستقلال . ومن بين هذه الصحف التي صدرت في الوطن العربي ، الوقائع المصرية عام ١٨٢٨م ، ومرآة الاحوال في اسطبول عام ١٨٥٥م ، وحديقة الاخبار في بيروت عام ١٨٥٨م ، والفرات في حلب عام ١٨٦٧م ، والزوراء في بغداد عام ١٨٦٩م ، والرائد التونسي عام ١٨٦١م [٤].

---

(١) كمال مظهر احمد ، اضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط ، بغداد ١٩٧٨ م ، ص٢٦٤ - ٢٦٥ .

(٢) محمود صالح منسي ، المصدر السابق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٤) علي المحافظة ، المصدر السابق ، ص ٢٨ - ٣٠ .

وللاطلاع على دور الصحافة في اثارة المشاعر الوطنية والقومية لأبناء الامة العربية ، نذكر ماشار اليه اديب اسحاق في صحيفة (مصر) فقد جاء في العدد الاول الذي صدر في ٢٤ / كانون الثاني / عام ١٨٧٩ م القول :

[مقصدي أن أُثير الحمية الشرقية ، وأُهيج الدم العربي ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين ، ليعلم قومي ان لهم حقا مسلوبا فليتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل مدلس يشتري بحقوقهم ثمنا قليلا . ويذيقوا الخائن عذابا وبيلا . ويستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم واموالهم وأوطانهم ولهم من الاجانب بما يطمعون فيه رفعة المقام . فمن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد] (١) .

وبالرغم من تعدد ولاءات الصحف وأتجاهاتها الاأنها أسهمت بنشر الثقافة وأغنت الفكر العربي بطروحاتها وماقدمته من مناقشات وأبحاث اعادت الثقة الى نفوس العرب ووضعتهم وجها لوجه امام العثمانيين الاوربيين بما يمتلكون من امكانات لانتزاع حقوقهم القومية (٢) .

وأسهمت الجمعيات الادبية والعلمية التي ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدور لا يقل اهمية عن العوامل السابقة في تهيئة الاسس الفكرية لانطلاق حركة القومية العربية ، من خلال الاقبال على بعث ودراسة التراث العربي الادبي والعلمي ، وكان في مقدمة الرواد الذين كان لهم دور متميز في هذا المجال بطرس البستاني وناصيف اليازجي ، ومن اولى هذه الجمعيات (جمعية الاداب والعلوم) التي اتخذت من بيروت مقرا لها عام ١٨٤٧م ، واستمرت هذه

---

(١) انور الجندي ، الفكر العربي المعاصر في معركة التغريب والتبعية الثقافية ، القاهرة بلا ، ص ٥٧ .

(٢) عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص٥١٤ .

الجمعية لمدة خمس سنوات كانت تلقى فيها محاضرات اسبوعية [١] .

وتأسست في عام ١٨٥٧م الجمعية العلمية السورية ، التي ضمت عددا كبيرا من الادباء والمثقفين ، فقد بلغ اعضائها (١٥٠) عضوا ، وقد تميزت هذه الجمعية عن سابقتها بأنها رفضت قبول احد المبشرين في عضويتها فأنضم اليها عدد من الشخصيات العربية من امثال محمد ارسلان وحسين بيهم ، وبالرغم من ان مقر هذه الجمعية كان في بيروت الا ان نشاطها لم يقتصر على بلاد الشام ، فقد ضمت اعضاء من مصر وبعض الادباء والمثقفين العرب المقيمين في اسطنبول وهذا يشير الى تطور نمو الوعي القومي العربي [٢] .

ومن اعضائها البارزين ابراهيم اليازجي الذي واصل رسالة أبيه ناصيف اليازجي في حركة احياء التراث العربي ، ويمكن الاشارة هنا الى واحدة من قصائده المشهورة التي اصبحت احدى اناشيد حركة القومية العربية في المرحلة اللاحقة [٣] :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالأمال تخدعكم ... وانتم بين راحات القنا سلب
الله اكبر ما هذا المنام فقد ... شكاكم المهد و اشتاقتكم التربة
كم تظالمون ولستم تشتكون وكم ... تستغضبون فلا يبدو لكم غضب
ألفتم الهون حتى صار عندكم ... طبعا و بعض طباع المرء مكتسب

---

(١) جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص١٧ ، محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٢) جورج انطونيوس ، المصدر السابق ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٣) عبد الغني البشري ، المصدر السابق ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ، محمد عبد الرحمن برج ، المصدر السابق ، ص ٩٢ - ٩٥ .

والى جانب هذه العوامل التي عملت على نهضة الامة العربية ظهرت فئة مثقفة نبهت الجماهير العربية الى المساوئ التي عانى منها الانسان العربي في ظل الحكم الاستبدادي للسلطان عبدالحميد ، ودعت الى اصلاح الحكم على أساس العدل الحرية والمساواة . فتعالت الصيحات الى ضرورة الحفاظ على الحرية الانسانية ضمن حدود الدستور ، والى الشورى والديمقراطية لان الواجب يدعو الحاكم الا يحكم وفق رغباته ، بل بموجب القوانين التي يضعها الشعب .

وبالرغم من تباين وجهات النظر للمفكرين والكتاب السياسيين الذين عاصروا الاحداث في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، الا انهم جميعا كانوا متفقين على إنقاذ الامة العربية من حالة التردي والواقع السيء في ظل الحكم العثماني ، والعمل على الارتقاء بمستوى الانسان العربي اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وسياسيا بما يعزز دوره في خدمة تطلعات الامة العربية في الحرية والاستقلال ، وما ظهور الجمعيات العربية الا نتيجة طبيعية لتطور حركة القومية العربية ، وبالرغم من ان هذه الجمعيات كان نشاطها في المشرق العربي الا ان صداها عم الوطن العربي [١] .

---

(١) محمد برج عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص ٩٩ - ١١١ ، محمود صالح منسي ، المصدر السابق ، ص ٩٨ - ١٠٥ ، عبد الكريم رافق ، المصدر السابق ، ص ٥١٦ - ٦٢٩ ، مكي حبيب المؤمن واخرون من طلائع يقظة الامة العربية ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٤٥ - ١١١ .

الخاتمة

نتيجة للتحدي الذي واجهته الامة العربية في تأريخها الحديث ، والذي تمثل بالاحتلال العثماني والاستعمار الاوربي وما عانته خلاله من تردي في اوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ان انعكس ذلك على تصعيد المقاومة العربية وبكل الوسائل المتاحة في الانتفاضات والثورات .

وظهرت المحاولات الاولى للانفصال عن الدولة العثمانية عندما أقدمت بعض الأسر والزعامات المحلية على تأسيس كيانات سياسية مستقلة ، وكذلك ظهور العديد من الحركات الاصلاحية السلفية التي كانت تهدف هي الاخرى الى الاستقلال عن الدولة العثمانية .

ولدت هذه القوى والحركات ظروفا ذاتية لدى الشعب العربي دعت الى ضرورة احداث نهضة عربية لمواجهة الظلم والاضطهاد والاستقلال الذي تعرضت له الامة العربية من قبل سلطات الاحتلال العثماني وقوى الاستعمار الاوربي . كل ذلك بالاضافة الى عوامل اخرى ساعدت على نمو اليقظة القومية وتطور اساليب نضالها الى مرحلة اكثر نضجاً ووعيا في التعبير عن اهداف القومية العربية في الحرية والاستقلال .

وهكذا دخلت الامة العربية مرحلة تاريخية جديدة اتسمت بظهور المصلحين والمفكرين والسياسيين الذين كان لهم الدور الرائد في انطلاقة حركة الثورة العربية.

المصادر والمراجع

(١) ابراهيم خليل احمد ، تأريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر ، الموصل ، ١٩٨٧ .

(٢) احمد موسى البكري ، تأريخ الوطن العربي في العصور الحديثة ، بلا ، ١٩٧٢.

(٣) ارسكين تشايلدرز ، الحقيقة عن العالم العربي ، تعريب خيري حماد ، بيروت ، ١٩٦٠ .

(٤) انور الجندي ، الفكر العربي المعاصر في معركة التعريب والتبعية الثقافية ، القاهرة ، بلا .

(٥) انور الجندي ، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار ، القاهرة ، ١٩٧١ .

(٦) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، ترجمة ناصر الدين الاسد واحسان عباس ، ط ٥ ، بيروت ، ١٩٧٨ .

(٧) حازم زكي نسيبة ، القومية العربية فكرتها - نشأتها - تطورها ، ترجمة عبد اللطيف شرارة ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٢ .

(٨) خيري عبد الصاحب ، الفكر القومي العربي في المغرب العربي ، بغداد ، ١٩٨٢ .

(٩) ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٦٥ .

(١٠) شارل اندري جوليان ، المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي ، ترجمة محمد مزالي ، تونس بلا .

(١١) عبد الرحمن الرافعي ، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ، ج ٢ ، ط ٤ ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(١٢) عبد الغني البشري ، أثر سياسة القوميات في الحركة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٤ .

(١٣) عبد الكريم رافق ، العرب والعثمانيون ١٥٦١ - ١٩١٦م ، دمشق ١٩٧٤ .

(١٤) عفيف البوني ، وعي الهوية العربية في الفكر التونسي الحديث ، باريس ، ١٩٨٢.

(١٥) علاء نورس ، العراق في العهد العثماني ١٧٠٠-١٨٠٠م ، بغداد ١٩٧٩ .

(١٦) علي المحافظة ، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة ١٧٩٨-١٩١٤ م ، بيروت ، ١٩٨٣ .

(١٧) كمال مظهر احمد ، اضواء على قضايا دولية في الشرق الاوسط ، بغداد ، ١٩٧٨ .

(١٨) لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديثة ، ترجمة عفيفة البستاني ، موسكو ، ١٩٧١ .

(١٩) محمد اسعد طلس ، تأريخ الامة العربية ، عصر الانحدار ، بيروت ، ١٩٦٣ .

(٢٠) محمد العزب موسى ، وحدة تأريخ مصر ، بيروت ، ١٩٧٢ .

(٢١) محمد عزة دروزة ، نشأة الحركة العربية الحديثة ، بيروت ، ١٩٧١ .

(٢٢) محمد عبد الرحمن برج ، دراسة في التاريخ العربي الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ١٩٧٤ .

(٢٣) محمد عمارة ، العروبة في العصر الحديث ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

(٢٤) محمد عمارة ، فجر اليقظة القومية ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

(٢٥) محمود صالح منسي ، حركة اليقظة العربية في الشرق الآسيوي ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

(٢٦) مصطفى الشهابي ، القومية العربية تأريخها وقوامها ومراميها ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٦١ .

(٢٧) مكي حبيب المؤمن وآخرون ، من طلائع يقظة الامة العربية ، بغداد ، ١٩٨١ .

(٢٨) ناجي علوش ، الحركة القومية العربية نشؤوها ، تطورها ، اتجاهاتها ، بيروت ، ١٩٧٥ .

(٢٩) نزار عبد اللطيف الحديثي ، الامة العربية والتحدي ، بغداد ، ١٩٨٥ .

(٣٠) نور الدين حاطوم ، محاضرات عن حركة القومية العربية ، القاهرة ، ١٩٦٧ .